رواميات أبي فراس الحمداني دراسة في أغراض الشعر

أ . محمد رمضان عبد الحميد إبراهيم
كلية التربية – الزاوية

مقدمة

في القرن الرابع الهجري ، العصر العباسي الثاني ، بغداد في خلافة الخليفة العباسي الراضي ، الدولة العباسية في حالة ضعف ، دويلات هنا وهناك تنفصل عن الدولة الأم استقل الغزلويون في فارس والطولونيون في مصر والحمدانيون في حلب ، ناصر الدولة الحمداني يتمرد على الخليفة الراضي ويستقل بولاية الموصل ، الخليفة الراضي يستدعي سعيد بن حمدان عم ناصر الدولة ويوليه إدارة الموصل على أن يطرد منها ابن أخيه ، إلا أن ناصر الدولة كان أخف إلى الدفاع عن نفسه ، ففتك بعمه وأوقف الخليفة عند حده [1]

قتل أبو العلاء سعيد بن حمدان ، وترك بعده زوجة رومية الأصل ، وطفلا في نحو الثالثة من العمر ، هو الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي الربعي ، المعروف بأبي فراس كانت ولادته في الموصل سنة 320 هـ -932 م ، وكان ابن عمه سيف الدولة أميرا ينتقل في خدمة الخليفة ، بين بغداد والموصل وديار ربيعة ، ثم اقتطع لنفسه حمص وحلب واستقل فيهما ، احتضن سيف الدولة ابن عمه الطفل اليتيم ورعاه فشب في كنفه ، وسكن قصر الإمارة في حلب التي كانت محج الأدباء والشعراء ، وعلى رأسهم أبو الطيب المتنبي لم يقض أبو فراس حياته القصيرة في العلم والأدب فقط ، بل زانها بفروسية تجلت ملامحها في صحبته لسيف الدولة ، ليتشكل فيها وعيه السياسي طموحا وعملا ، حتى كان على حد قول الثعالبي " فرد دهره مجدا وبلاغة ، وفروسية وشجاعة " [2]، وكان سيف الدولة يصطحبه في غزواته ، ويستخلفه على أعماله[3] ،قال أبو فراس :" غزونا مع سيف الدولة وفتحنا حصن العيون سنة 339 هـ وسني إذ ذاك تسع عشرة سنة " [4]، وبعد أن أثبت مهارة في قيادة الجيوش ولاه ابن عمه ولاية منبج ، وكانت منبج من أهم الثغور بين إمارة

سيف الدولة والروم البزنطيين ، وحصنا منيعا لحلب ، فتولى شؤونها بشجاعة ونشاط وراح من جهة يدفع عنها هجمات الروم ، ومن جهة يخضع القبائل العربية الثائرة على ابن عمه [5]، أسر الروم أبا فراس ، وقد تضاربت الاراء في عدد مرات أسره ، فبينما يرى بعضهم أنه أسر مرتين ، ولبث في الأسر سبع سنوات ، يرى بعضهم أنه أسر مرة واحدة ودام أسره أربع سنوات ، وكما اختلفوا في عدد مرات الأسر ، اختلفوا في طريقة الأسر فبينما يرى البعض أنه أسر وهو عائد من الصيد عن طريق كمين أقيم له ، يرى آخرون أنه أسر بعد مواجهة مع العدو ، في معركة أصيب إثرها بسهم في فخذه وبقي نصله فيه، وأسر البطل المغوار، واقتيد إلى خرشنة [6]، ومنها إلى القسطنطينية، ليذوق ذل الآسر وألم الجراح غير أن نفسه تظل صلبة عاتية لا تنكسر أبدا، بل يزداد مع الأيام عتوا وصلابة يطول الأسر، فتكثر أشعار أبي فراس إلى أهله وسيف الدولة وإخوانه ، يطالبهم بالإسراع في افتدائه [7] ،ولكن سيف الدولة يتباطأ في الفداء، وهنا يختلف الباحثون في أسباب هذا التباطؤ ، فيرجعه بعضهم لجفوة نشأت في قلب سيف الدولة ، بينما يرى بعضهم أن الفداء بذل للشاعر مفردا ، فأبى إلا أن يكون ذلك مع سائر الأسرى ، ويرى آخرون أن الأمر الذي حال دون الإسراع في الفداء هو انشغال سيف الدولة ببعض الشؤون الداخلية ، ورد الاعتداءات و المؤامرات الخارجية على الدولة، وفي سنة 355هـ - 966م تم فداء الشاعر فعاد إلى وطنه بعد مرارة شرب كأسها حتى الثمالة [8]، في سنة 356هـ - 967م وبعد مرور سنة من افتدائه ، مات سيف الدولة حتف أنفه وخلفه ابنه أبو المعالي سعد الدولة ، وهو ابن أخت الشاعر ،وكان صبيا آنذاك يعاونه على الأمر قرعويه مولى أبيه الذي عمل على إفساد العلاقة بين أبي المعالي وخاله أبي فراس فطلب الخليفة الصغير أبو المعالي من خاله أبي فراس التنازل عن حمص لقرعويه ، فامتنع عن تسليمها [9]، فوجه إليه جيشا بقيادة قرعويه ، وتمكن من قتله سنة 357هـ - 968م 10 وقد ذكر ابن خالويه أن آخر شعره هو قوله لما أدركته المنية مخاطبا ابنته :[11]

أبنيتي ، لا تحزني
كلُّ الأنامِ إلى ذهابِ
أبنيتي ، صبراً جميلاً
للجَليلِ مِنَ المُصَاب !
نُوحِي عَلَيّ بحَسْرَة
من خَلفِ سترِك وَالحجابِ
قُولي إذَا نَادَيْتِني،
وعييتِ عنْ ردِّ الجوابِ :
زينُ الشبابِ ، " أبو فراس
لمْ يُمَتَّعْ بِالشّبَابِ!

الروميات:

أطلق على قصائد أبي فراس التي نضمها في أسره ببلاد الروم اسم الروميات نسبة إلى البيئة التي قيلت فيها ، كما ورد عند الثعالبي في يتيمته لتمييزها عن فنونه الشعرية الأخرى[12] ، أما ابن شرف القيرواني[13] فقد أطلق عليها الأسريات نسبة إلى الأسر الذي قضى فيه أبو فراس شطرا من حياته ، غير أن التسمية الأولى هي الأكثر شيوعا عند النقاد والباحثين، وقد بلغت قصائد أبي فراس في أسره خمسا وأربعين قصيدة ومقطوعة صور فيها نفسه وحاله في الأسر ، وحث سيف الدولة على افتدائه وعتب عليه وشكا منه ، لتأخره في أمر فدائه كما عتب على أصدقائه وشكا منهم لتنكرهم له في محنته ، وحن فيها إلى أهله ووطنه وافتخر بماضيه المجيد محاولا التعويض عما يرزح تحته من قيود الأسر ، فأبدى عزة وتجلدا يخالطهما ألم وحسرة ، مما أضفى على شعره صبغة خاصة ، تمثلت في لون باك حزين، وقد صنفت رومياته إلى أربعة محاور أساسية :

- **المحور الأول الفخر والحماسة** :- يتناول شخصية الفارس البطل التي لم تتبدل في أسره عما كانت عليه قبل أسره ، والتي ظلت متعلقة بماضيها العظيم وتاريخها الحافل ، ترفد منهما حاضرها المؤلم .

- **المحور الثاني الشكوى والعتاب** :- يتناول شخصية الفارس الشاكي والعاتب ، وهو متصل بالمحور الأول حيث هو ردة فعل ناجمة عن عدم التوقع وانكسار الثقة وانهزام الأمل المرجو .
- **المحور الثالث محور العاطفة و الحنين** : - وهو قائم على العلاقة بينه وبين أهله وبخاصة أمه وإحساسه الحزين لمصيرها ، وحنينه إلى وطنه وأحبته وقومه رغم تنكرهم له ، وقد رافق حنينه شعور بالغربة في بلاد الروم .
- **المحور الرابع الحكمة** :- وهو قائم عن بعض الحكم التي لخصها الشاعر من تجاربه في الحياة .

كما اشتملت على محاور ثانوية تمثلت في :- الغزل ، والهجاء ، والرثاء ، والأخوانيات.

1. **الفخر والحماسة** :

كان للفخر والحماسة مكانة بارزة في روميات أبي فراس ، وليس بمستغرب من أبي فراس الذي تربى في حجر سيف الدولة ، الذي هيأ له من وسائل التأديب والتعليم والفروسية ما لم يتوفر لغيره ، مما مهد له السبيل إلى هذا اللون الأدبي ، فلم تكن تخلو رومية من رومياته من هذين الغرضين ، فبالرغم من وقوع أبي فراس في الأسر ، وماجره على نفسية الفارس المغامر الطموح ذي العزة والجاه والسلطان وصاحب الأمر والنهي ، من عيش نكد وحياة بئيسة وذل الأسر ، فقد فيها جل ما يتمتع به من سلطان وثراء وصولة وجولة في ميادين الحروب بيده ولسانه ، إلا أن ذلك لم يفقده جلده وعزته وكبريائه ، ولم تتبدد شخصية البطل بل ظلت ماثلة في شعره ، ممزوجة بالأسى والحزن ومليئة بذكريات الماضي الحافل بالبطولات ، ويظهر ذلك جليا في أبياته عندما اقتيد إلى خرشنة أسيرا جريحا ، ولطالما عرفته هذه البلدة بطلا مغيرا فيقول :[14]

إِن زُرتُ خَرشَنَةً أَسيرا فَلَكَم أَحَطتُ بِها مُغيرا
وَلَقَد رَأَيتُ النارَ تَن تَهِبُ المَنازِلَ وَالقُصورا
وَلَقَد رَأَيتُ السَبيَ يُج لَبُ نَحوَنا حُوّاً وَحورا

وتعد السمة البارزة في فخر أبي فراس هي فخره بشعره ونفسه ،وادلاله بفروسيته وشمائله ، وقلما كان يفخر بقومه ، لتنكر معظم أقاربه له وتباطؤ سيف الدولة في افتدائه ، ويتضح ذلك في قوله :[15]

وأنا الذي ملأ البسيطة كلها نارِي وطنب في السماء دخاني

سلاك كل عظيمة ورادها ضراب هامات العدا طعان

إن لم تكن طالت سني فإن لي رأي الكهول ونجدة الشبان

وما ورد في قصيدته الرائية قوله :[16]

سيذكرني قومي إذا جد جدهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

ومن مظاهر فخره اعتقاده أن لا أحد يمكن أن يسد مكانه أيا كان فقال : [16]

متى تخلف الأيام مثلي لكم فتى طويل نجاد السيف رحب المقلد

متى تلد الأيام مثلي لكم فتى شديدا على البأساء غير ملهد

وقد تكرر قوله بأسلوب ينضح بالعزة والغيرة كقوله :[17]

إني أغار على مكاني أن أرى فيه رجالا لا تسد مكاني

وقوله :[18]

يضيق مكاني عن سواي لأنني على قمة المجد المؤثل جالس

وأما فخره بقومه فأفضله عند أغلب النقاد والأدباء ما ورد في الرائية وهو قوله :[19]

ونحن أناس لا توسط عندنا لنا الصدر دون العالمين أو القبر

تهون علينا في المعالي نفوسنا ومن خطب الحسناء لم يغلها المهر

أعز بني الدنيا وأعلى ذوي العلا وأكرم من فوق التراب ولا فخر

كما يبرر سقوطه في الأسر أنه كان قدرا ، ولم يكن بسبب عجز منه أو ضعف بل كان مغامرة شرف في وجه الانهزامية والتخاذل قائلا :[20]

أسرت وما صحبي بعزل لدى الوغى ولا فرسي مهر ولا ربه غمر

ولكن إذا حم القضاء على امرئ فليس له بر يقيه ولا بحر

وقال...

أصيحابي الفرار أو الردى فقلت هما أمران أحلاهما مر

ولكنني أمضي لما لايعيبني وحسبك من أمرين خيرهما الأسر

وأشد فخر أبي فراس ما كان على الروم ، وأقواه هذا الحوار الذي دار بين الشاعر والدمستق في هذه الأبيات :[21]

فويلك من للحرب إن لم نكن لها ومن ذا الذي يمسي ويضحي لها تربا

ومن ذا يلف الجيش من جنباته ومن ذا يقود الشم أو يصدم القلبا

ومما تقدم من شواهد يتبين لنا أن أبرز سمة في فخر أبي فراس هي الواقعية ، والبعد عن شطط الخيال ، فهو "شاعر مفخار ، ولكنه متزن عاقل ، ناضج الفكرة ، لا يقول إلا ما يستوحيه من واقع الحال لا جانح الخيال"[22]، ومن سمات شعره أيضا "الاعتدال ، وترك الغلو الذي يذهب بالسامع أو القارئ إلى الاشمئزاز والملل ، وأحيانا إلى الازدراء التهكم "[23]

2. الشكوى والعتاب :

شكلت الشكوى أبرز ملامح روميات أبي فراس وأصدقها ، فقد " تضافرت عوامل متعددة على ذلك : سجن وأسر وغربة وبعد الأهل والوطن ، وبعد عن المطامح التي كانت تراود أحلامه ، وتأخر افتدائه وتنكر أقاربه وأصدقائه ، والأهم من ذلك حالة أمه العجوز التي كانت تعاني من سوء صحتها ، وخاصة بعد أن وقع وحيدها أسيرا "[24]، فقد شكا من الحالة التي آل إليها ، ثم بث بشكواه إلى الله سبحانه وتعالى فيقول :[25]

عسى الله أن يأتي بخير فإن لي عوائد من نعماه غير بوائد

فكم شالني من قعر ظلماء لم يكن لينقذني من قعرها حشد حاشد

ويصرخ بشكوى أمه المريرة ، ويرسلها إليها كي يخفف عنها ، وإنها لزفرات حارة من قلب ينفطر ألما [26] :

يا حسرة ما أكاد أحملها آخرها مزعج وأولها

عليلة بالشام مفردة بات بأيدي العدى معللها
أسلمنا قومنا إلى نوب أيسرها في القلب أقتلها

ويزداد ضيقه وعسره ، ويشتد ألمه حين يلتفت فلا يجد من يعينه من أصحابه الكثر الذين كانوا يحيطون به في حال اليسر ، فقد شكا أبو فراس كثيرا من أصحابه حتى شكا من الناس كلهم من فرط يأسه منهم :[27]

بمن يثق الإنسان فيما ينوبه ومن أين للحر الكريم صحاب
وقد صار هذا الناس إلا أقلهم ذئابا على أجسادهن ثياب

ويقرب شكواه بأصحابه شكواه من الزمان فيقول :[28]

يمضي الزمان وما ضفرت بصاحب إلا ضفرت بصاحب خوان
يا دهر خنت مع الأصادق خلتي وغدرت بي في جملة الإخوان

أما العتاب فهو " من الفنون التي تجيش بالعواطف الزاخرة ، التي يحملها الشاعر نحو صديق كان بينهما مودة وحب ، ثم طرأ على علاقتهما ما شابها وعكر صفوها ، فيعمد الشاعر في عتابه إلى لون من المؤاخذة الرقيقة ، التي يذكر فيها ماضي ودهما ، ويفصل فيها ما كان يربط بينهما من علاقات طبيعية ، في شيء من التقريع الذي يعنف حينا ويرق حينا ، ولم يكن العتاب يوجه للأصدقاء فحسب ، بل كثيرا ما كان يوجه للأمراء وذوي السلطان ، وفي هذه الحالة يكتسي بغلالة من المديح الرقيق "[29]، وقد كان عتاب أبي فراس في الروميات في معظمه موجها إلى سيف الدولة ، بعضه رقيق يخالطه الود والصفاء ، ومن ذلك قصيدته البائية في قوله :[30]

أما لجميل عندكن ثواب ولا لمسيء عندكن متاب

وقوله :[31]

فلا تحمل على قلب جريح به لحوادث الأيام ندب
فقل ماشئت في فلي لسان مليء بالثناء عليك رطب
وعاملني بإنصاف وظلم تجدني في الجميع كما تحب

وعندما يمتنع سيف الدولة عن مبادلة أبي فراس ، ويصر على فداء عام ، يفيض ألم الشاعر عاتبا ، فيشوب لغته لون من الخوف وعدم الطمأنينة فيقول :[32]

وقد كنت أخشى الهجر والشمل جامع وفي كل يوم لقية وخطاب

فكيف وفيما بيننا ملك قيصر وللبحر حولي زخرة وعباب

أمن بعد بذل النفس فيما تريده أثاب بمر العتب حين أثاب، وتزداد حدة العتاب مع ازدياد مدة الأسر ، " وبلغ أبا فراس أن والدته قصدت سيف الدولة من منبج تكلمه في المفاداة وتتضرع إليه ، فلم يكن عنده ما رجت من حسن الإيجاب "[33]، فتوجه إلى سيف الدولة بعتاب كأنه تقريع ، يتجاهل فيه شخصيته أميرا فيقول :

بأي عذر رددت والهة عليك دون الورى معولها

جاءتك تمتاح رد واحدها ينتظر الناس كيف تقفلها

تلك المودات كيف تهملها تلك المواعيد كيف تغفلها

أين المعالي التي عرفت بها تقولها دائما وتفعلها

ويتطاول في عتابه ، فينظر للآخرين على أنهم أقل منه رتبة ، والمحيطون [34]بالأمير لن يعوضوه عن أبي فراس، ولن تجود الأيام بمثله ،وأن قومه بحاجة إليه أكثر مما هو بحاجة إليهم:[35]

فإن تفتدوني تفتدوا شرف العلا وأسرع عواد إليها معود

وإن تفتدوني تفتدوا لعلاكم فتى غير مردود اللسان أو اليد

فلا وأبي ما ساعدان كساعد ولا وأبي ما سيدان كسيد

ويبالغ في عتابه حتى وصل حد اللوم والذم ، حين طعنه سيف الدولة في شهرته التي بناها على حد السيوف وصهوة الكلمة ، " وذلك حين اتهم أبو فراس بقول بعض الأسرى : إن ثقل هذا المال على الأمير سيف الدولة ، كاتبنا فيه صاحب خراسان "[34] ، فقال سيف الدولة : ومن أين يعرفه أهل خراسان [35] ، فرد عليه أبو فراس [36] :

أسيف الهدى وقريع العرب علام الجفاء وفيم الغضب

وأصبحت منك فإن كان فضل وبيني وبينك فوق النسب
وإن خراسان إن أنكرت علاي فقد عرفتها حلب

وعندما بلغ هذا الخطاب العنيف سيف الدولة غضب وتوعد ، وأرسل عتابا مرا إلى أبي فراس ليكون زيادة في ألمه ، فينشئ رومية أخرى يستعطف فيها سيف الدولة ، ويملؤها بعواطفه قائلا:[37]

زماني كله غضب وعتب وأنت عليا والأيام إلب
إلى كم ذا العقاب وليس جرم وكم ذا الاعتذار وليس ذنب
فلا تحمل على قلب جريح به لحوادث الأيام ندب
أمثلي تقبل الأقوال فيه ومثلك يستمر عليه كذب

ومن خلال الأبيات السابقة، نرى أن شكوى أبي فراس كانت تتسم بالصدق والحزن ، نتيجة لما عاناه ، فيطبع شكواه الخاصة بطابع خاص ، يعبر فيه عما يخالج نفسه من مشاعر وأحاسيس ، فهو يعبر عن شكوى الناس عامة ، وهذا من أسباب خلود الروميات" ومذهب أبي فراس في شكوى حاله وخلانه مزيج من الألوان المتعددة ، وقلما يقصر قوله عن الشكوى وحدها "[38]، كما " مزج أبوفراس شكواه ببعض الحكم ، ومزج بين الشكوى والغزل كذلك "[39]، ولم يخل عتابه من المدح ، كما أنه يشتد ويلين بحسب الموقف والمناسبة أما عتابه لغير سيف الدولة ، والذي قصد به أقاربه الذين تمنوا عدم خلاصه من أسره ، فقد "صور أبا فراس رقيقا مع أصحابه حدب على خلانه ، وأقل رقة مع أصحاب الحول والسلطان ، وهو بهذه الصفات مثال الرجل الحر ، الذي لا تنسيه السلطة والملك كرامته وعلو همته ، ومثال الرجل المهذب الذي لا يغلظه ما كان له من مكانة وعلو منزلة عن أصحابه ، وإن كانوا أقل منه مكانة "[41]

3. العاطفة والحنين :

تعد القصائد التي نظمها أبو فراس في هذا الغرض من أجمل ما قال ، حيث أنها تلامس الوجدان ، وتبعث العواطف الكامنة ، وتشرك مظاهر الطبيعة في أحاسيسها، فقد توجه

الشاعر إلى كل شيء حوله مما يثير شجونه ، ويبعث آلامه ، فقد توجه إلى الليل فيقول مخاطبا الليل وكأنه صديق حميم ، ويبثه نجواه وحزنه وشعوره بالغربة قائلا :

يا ليل ما أغفل عما بي حبائبي فيك وأحبابي
ياليل نام الناس عن موجع ناء على مضجعه نابي

ويشارك النجوم حيرته ويتعاطف معها وتتعاطف معه ، في مشاركة وجدانية رائعة فيقول :

ما لنجوم السماء حائرة أحالها في بروجها مثل حالي
أبيت حتى الصباح أرقبها مهتديات في حال ضلال
أما تراها علي عاطفة تكاد من رقة تبكي لحالي

كما يثير شجونه صوت حمامة على غصن شجرة ، أخذت مكانها بالقرب من مكان أسره ، وكأنها تبكي هديلها ، فكانت مصدر وحي لأبي فراس ، فناجاها بأبيات شعرية قال فيها :

أقول وقد ناحت بقربي حمامة أيا جارتا لو تعلمين بحالي
معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى ولا خطرت منك الهموم ببالي
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا تعالي أقاسمك الهموم تعالي
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلة ولكن دمعي في الحوادث غالي

و" أبو فراس الذي أقبل عليه العيد وهو أسير في بلاد الروم ، مضى خياله يحلق فوق دار هناك بمنبج في الشام ، فأحس بالوحشة تكتنف جنباتها ، ورأى أهله يستقبلون العيد لا كما اعتادوا استقباله في طرب وبهجة ، ولم يروا في طلعته حسنا وجمالا"[42] كالسابق ، فيقول[43] :

يا عيد ما عدت بمحبوب على معنى القلب مكروب
يا وحشة الدار التي ربها أصبح في أثواب مربوب
قد طلع العيد على أهله بوجه لا حسن ولا طيب

وقد خالط عاطفته حنينه ، ذلك لأن مبعثهما الألم و"الوحدة التي تفتح صندوق الذكريات ، وشوقه وحنينه إلى مرابع الصبا والأهل والأصحاب ، وقد تذكر الشاعر كل شيء حتى غلاميه منصور وضاف ، وحن إلى كل شيء "[43] ، كما أن شعوره بأحبابه وآلامهم من أجله ، ناجم عن عاطفته الجياشة ، وهذا من خصال أبي فراس ، فيقول : [44]

يعز على الأحبة بالشام حبيب بات ممنوع المنام
يبيت همومه والليل داج تقلبه على وخز السهام

ويبعث لهم مع صاحبيه في ختام هذه الرسالة سلاما حارا ، فيقول :[45]

ألا يا صاحبيا تذكراني إذا ما شمتما البرق الشامي
إذا ما لاح لي لمعان برق بعثت إلى الأحبة بالسلام

ويرسل أبو فراس أبياتا إلى أمه وصبيته ، والذكريات الجميلة تمر مخضبة بألم الفراق والدموع في عينيه قائلا :[46]

لأيكم أذكر وفي أيكم أفكر
وكم لي على بلدتي بكاء ومستعبر
ففي حلب عدتي وعزي والمفخر
ومن حبه زلفة بها يكرم المحشر
وصبية كالفراخ أكبرهم أصغر
وقوم ألفناهم وغصن الصبا أخضر

ويصيح في عاطفة ملؤها التساؤل واليأس :

هل تعطفان على العليل لا بالأسير ولا القتيل
باتت تقلبه الأكف سحابة الليل الطويل
فقد الضيوف مكانه وبكاه أبناء السبيل

كما أن شوقه يتعدى ذلك كله إلى ساح الوغى التي تربى فيها ، فيظهرها عاطفته ممزوجة بالحنين إلى السيوف والحراب :[48]

تمر الليالي ليس للنفع موضع لدي ولا للمعتفين جناب
ولا شد لي سرج على ظهر سابح ولا ضربت لي بالعراء قباب
ولا برقت لي في اللقاء قواطع ولا لمعت لي في الحروب حراب

وما سبق من أبيات وشواهد جعلنا نلمس في عاطفة أبي فراس وحنينه الصدق والإخلاص والوفاء ، والانفعال في المواقف المختلفة ، "ولا شك أن الظروف التي حاقت به في أسره من آلام سجن وغربة ، لم يألفها وهو الأمير الشجاع ، ومرض أمه وموتها حسرة عليه كل ذلك جعل أبا فراس سيد شعراء العاطفة والحنين والوجدان ، فلم ينثني يطرق المعاني القريبة والبعيدة وما يمتلك ناحية الشاردة والواردة ، ولم يهدأ له بال حتى كتب له الخلاص ، وعاد إلى موطنه حرا طليقا ينشد قصائده "[49] .

4. **الحكمة** :

الحكمة " العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه ، والعمل بمقتضاها "، ويقال "إصابة الحق بالعلم والعمل "[50]، والحكمة باب من أبواب الشعر قديمه وحديثه ، وبالإضافة إلى شيوع الحكمة في شعراء عصره من أمثال أبي الطيب المتنبي "فالحكمة التي نجدها عند شاعر بني حمدان تعبر عن فكرة مرت بخاطره ، أوحى بها حادث عرض ، فسجلها وصاغها في أسلوبه ، وساقها في الموضع اللائق بها"[51]، فالحكمة هي نتاج تجربة يمر بها الحكيم ، وعن نظرته للحياة ، وقد " استوحى أبو فراس معظم الحكم من ظرفه الخاص المتمثل في أسره وفي موقف أقاربه وأصدقائه ، فكان الشرارة التي أخرجت ما بداخله من حكمة ، فجاء كثير منها معبرا عن حالة الشاعر التي كان يعانيها ، ومتحدثا عن الصداقة والأصدقاء وما إلى ذلك ".[52]، ومما ميز شعر الحكمة لأبي فراس أنه أخذ طابعا من سلوكه الشخصي المتسم بالعزة والإباء والفخر بنفسه ، ونظرته لها نظرة إجلال وإكبار جعله يشعر ألا أحد يسد مسده ، فصاغ ذلك في حكم قائلا :[53]

وهل يرتجى للأمر إلا رجاله ويأتي بصوب المزن إلا السحائب

كذلك شعوره باستغناء أهله عنه ، ومحاولة رجال آخرين أن يصلوا إلى ما وصل إليه فخانتهم الخطى ،يقول :[54]

فما كل من شاء المعالي ينالها ولا كل سيَّار إلى المجد يهتدي

ومن أروع الأبيات في فخره يقرنها بحكمة جميلة قوله :

تهون علينا في المعالي نفوسنا ومن خطب الحسناء لم يغلها المهر

ويحاول أن يثبت أنه لا غنى عنه ، وأن قومه محتاجون إليه أكثر من حاجته إليهم فيقول :[54]

سيذكرني قومي إذا جد جدهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

ولو سد غيري ما سددت اكتفوا به وما كان يغلو التبر لو نفق الصفر

ويصوغ حكمة في بيت يضرب به أن الموجودين في غيابه ليسو كفوا ، وإنما لعدم وجود الفضل فيقول :

لقد قنعوا بعدي من القطر بالندى ومن لم يجد إلا القنوع تقنعا

وفي حديثه عن جيوش الروم المغيرة ينسخ حكمة يذم فيها البغي في الشطر الثاني قائلا : [57]

البغي أكثر ما تقل خيولهم والبغي شر مصاحب الإنسان

كما يصوغ حكما عن الأخلاق، ذاكرا أروع الخلل فيقول :[58]

كذاك الوداد المحض لايرتجى له ثواب ولا يخشي عليه عقاب

ويؤكد المعنى السابق بمعنى فيه فدائية وإخلاص فيقول :[59]

فمن لم يجد بالنفس دون حبيبه فما هو إلا ما ذق الود كاذب

ويصوغ الحكمة الرائعة (الصبر مفتاح الفرج) في بيت إلى أمه قائلا :[60]

فيا أمتا لا تعدمي الصبر إنه إلى الخير والنجع القريب رسول

ويا أمتا لا تخطئ الأجر إنه على قدر الصبر الجميل جزيل

ويصف أسره في حكمة تصف آلامه وما يعاني قائلا :

تطول بي الساعات وهي قصيرة وفي كل دهر لا يسرك طول

وفي قصيدة إلى أخيه يقول حكمته الذائعة : [61]

ومن مذهبي حب الديار لأهلها وللناس فيما يعشقون مذاهب

وعن تجربة يصف معاملة الصديق الذي سئم صديقه فيقول :[62]

إذا الخل لم يهجرك إلا ملالة فليس له إلا الفراق عتاب

وفي حكمة ناجمة عن ثقافة إسلامية تعمقت في نفسه ، يرى أن الاتكال على غير الله يصبح صاحبه مرمى لسهام الخطوب ، فيقول :[63]

إذا كان غير الله للمرء عدة أتته الرزايا في وجوه الفوائد

وفي حكمة أخرى نراه يتحدث عن القضاء والقدر مبررا وقوعه في الأسر قائلا :[64]

ولكن إذا حم القضاء على امرئ فليس له بر يقيه ولا بحر

وعن الدهر :[65]

وما هذه الأيام إلا صحائف لأحرفها من كف كاتبها بشر

وله فلسفة في الموت وحتميته فيقول :[66]

هيهات ما في الناس من خالد لا بد من فقد ومن فاقد

ولكن الحر يسعى كي يبقى في قلوب الناس مخلدا فيقول:[67]

هو الموت فاختر ما علا لك ذكره فلم يمت الإنسان ما حيي الذكر

ومما تقدم ، نلاحظ أن الحكمة عند أبي فراس جاءت متناثرة في رومياته ، وليس لها قصيدة خاصة بها ، كما أنها جاءت معبرة عن نفسيته وظروفه فبرئت من التصنع "وتعبير هذه الحكم عن مشاعر إنسانية عامة كتب لها الخلود ، كما اتسمت بعض الحكم عن غيرها من أنها طبعت بطابع الفخر ، إذ تحدثت عن مكانته ،وأخرى عن قومه الذين تناسوه وتنكروا له "[69]، أما الأغراض الثانوية في رومياات أبي فراس فهي :

1) – الرثاء :

إذا كان المديح ذكر محاسن الأحياء ، فإن الرثاء هو ذكر محاسن الموتى ، وكما أن أبا فراس لم يكثر من المدح في رومياته فإن رثاءه كان قليلا إذا ما قورن بالأغراض الأخرى ويرجع ذلك إلى سببين رئيسيين ، الأول مكانته كأمير وفارس يرى في نفسه مالا يراه في

غيره ، وثانيهما الأحداث التي عاشها الشاعر من أسر وغربة وتنكر الأهل والأصحاب فاقتصر رثاؤه في الروميات على نفسه وأقاربه ، فقد رثى أمه وابن أخته وأخت سيف الدولة.

فحينما طال أسر أبي فراس زاد أساه على أمه ، وشعوره بمصابها في فقد وحيدها وهي تطرق أبواب سيف الدولة وتذرف الدموع وجفاء سيف الدولة وغيره ، وهو يقول الشعر ويشكو ، وهي تزداد عليه لوعة وكمدا حتى اكتملت مأساته بفقدها ، فانهالت عليه الآلام من كل حدب وصوب ، فنراه ينشجها في أبيات يرسل فيها " ذوب نفسه ونفثات حشاه الجريح وصبابات قلبه الراعف بالجراح ، حتى يخيل إلينا أنا نسمع نشيج بكائه"[70] فيقول : [71]

أيا أم الأسير سقاك غيث بكره منك ما لقي الأسير

أيا أم الأسير سقاك غيث إلى من بالفدى يأتي الأسير

أيا أم الأسير لمن تربى إذا متِ الذوائب والشعور

ويختم قصيدته بيت رائع يصور فيه ألا عزاء يشفيه إلا لقاؤها بالموت فيقول :[72]

نسلى عنك أنا عن قليل إلى ما صرت في الأخرى نصير

ويموت أبو المكارم ابن سيف الدولة ، ويعلم أبو فراس بوفاته ، وكان الفقيد ابنا لأخته ، فأرسل من أسره قصيدة يعزي فيها سيف الدولة فيقول : [73]

ياعمر الله سيف الدين مغتبطا فكل حادثة يرمى بها جلل

يبكي الرجال وسيف الدين مبتسم حتى عن ابنك تعطى الصبر يا جبل

ومن مراثيه المؤثرة مرثيته لأخت سيف الدولة ، إذ أرسل إليه من سجنه يعزيه بها :[74]

أوصيك بالحزن لا أوصيك بالجلد جل المصاب عن التعنيف والجلد

إني أجلك أن تكفى بتعزية عن خير مفتقد يا خير مفتقد

بي مثل مابك من حزن ومن جزع وقد لجأت إلى صبر فلم أجد

وختم رثاءه بتذكير سيف الدولة بفدائه ، ولم يصرح بل يعرض فيقول :[75]

يا مفردا بات يبكي لا معين له أعانك الله بالتسليم والجلد

هذا الأسير المبقى لا فداء له يفديك بالنفس والآهلين والولد

ومن خلال أبياته السابقة في الرثاء يتبين لنا أن الشاعر" ميز شعره عاطفته الصادقة فصلة المرثي القوية بالشاعر أدت إلى إجادته التعبير عن الحزن ، وتصوير اللوعة والأسى"[76] كما مزج رثاءه ببعض الأغراض كالشكوى في رثائه لأمه ، وطلب الفداء في رثاء أخت سيف الدولة والحكمة ، كما طبع رثاؤه بأسلوب خاص تمثل في كثرة التكرار والاستفهام وبدأ يعرض قصائده كأنه يرثي نفسه .

2) – الإخوانيات :

"يقصد بها ما كان يدور بين الأصدقاء من الشعراء تدفعهم إليه الأخوة الصادقة ، ومن أقوى العوامل التي ساعدت على انتشار شعر الإخوانيات استعماله في أغراض مختلفة "[77] وتعد إخوانيات أبي فراس في الأسر من أرق الإخوانيات ألفاظا وأحرها عاطفة إلا أنها محدودة العدد إذا قيست بما قاله قبل الأسر ، لتنكر أصدقائه له .

كتب أبو فراس إلى أخيه أبي حرب بن سعيد ، قصيدة يعاتبه بها ويصور فيها شوقه إليه ومالحقه عند أسره كأنه يراه :[78]

أيعلم ما يلقى نعم يعلمونه علي النأي أحباب لنا وحبائب
أأبقى أخي دمعا أذاق أخي كرى أآب أخي بعدي من الصبر آئب
تجاوزت القربى المودة بيننا فأصبح أدنى مايعد المناسب
ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة تناقل بي فيها إليك الركائب

وأرسل إلى أخيه أبي الفضل يعاتبه على ترك الزيارة ، وهما أسيران ، إنما لم يترك أبو فراس مع الأسرى إكراما لمنزلته وعلو شأنه ، فيقول [79]:

أتترك إتيان الزيارة عامدا وأنت عليها لو تشاء قدير
فكم كان رأيي في لقائك نافذا ورأيك فيه ونية وفتور
يضيق عليا الحبس حتى تزوره فما هو إلا روضة وغدير

فأبياته في الإخوانيات نلاحظها اختلطت بعدة أغراض ، كالمديح والفخر والشكوى والعتاب والحكمة ، كما برزت فيها سمات عامة تمثلت في الشوق والدعاء الصادق ، وإبداء النصح الصادق والصبر والحفاظ على الصديق .

كما يمكن القول "أن الرسائل التي تبودلت بين أبي فراس وصحبه تعد من الأدب الرفيع ، صدقا وعاطفة وقوة أداء "[80].

3) الغزل :

جعل أبو فراس الغزل مقدمة لبعض قصائده ، واتخذ الرمز وسيلة من وسائل التعبير ، فقد بدأها بالمقدمة التقليدية في الشعر القديم ، بالوقوف على الأطلال ، فقال في إحدى رسائله لسيف الدولة :[81]

فرض عليا لكل دار وقفة تقضي حقوق الدار والأجفان
يا واقفان معي على الدار أطلبا غيري لها إن كنتما تقفان
منع الوقوف على المنازل طارق أمر الدموع بمقلتي ونهاني

وبمقدمة غزلية ، بدأ أبو فراس عتابه لسيف الدولة فيقول :[82]

أما لجميل عندكن ثواب ولا لمسيء عندكن متاب
إذا لم أجد في خلة ما أريده فعندي لأخرى عزمة وركاب
وليس فراق ما استطعت فإن يكن فراق على حال فليس إياب

كما بدأ رسالة لأحد أصحابه بمقدمة غزلية رقيقة ، قال فيها :

وقفتني على الأسى والنحيب مقلتا ذاك الغزال الربيب
هل لصب متيم من معين ولداء مخامر من طبيب
كن كما شئت من وصال وهجر غير قلبي عليك غير كئيب

وقصيدته الرائية المشهورة هي أول ما نظم في الأسر، وقد أجمع الأدباء والنقاد على أنها من أروع ما قيل من عيون الشعر العربي ، فقد بنيت على غرضين بارزين هما الغزل

والفخر ، جعل فيها المقدمة الغزلية على شكل حوار ممتع يشد السمع والقلب مخاطبا فيه نفسه قائلا :[83]

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر أما للهوى نهي عليك ولا أمر
بلى أنا مشتاق وعندي لوعة ولكن مثلي لا يذاع له سر

وقد نم الغزل في روميات أبي فراس على السير على نهج الأقدمين في ذكر الرسوم والوقوف على الأطلال ومخاطبة الخليلين ، وقد ميز غزل أبي فراس أنه جاء في صورة فيها عزة وكرامة وجلد ، ولم يبالغ في التذلل لمن يحب ، إذ أنه مزج بين الفخر و اعتداده بنفسه وبين الغزل ، فجاءت أبياته بلغة الفرسان نلمس فيها روح الفتوة ، كما أشار د. أحمد بدوي ، أن "غزل أبي فراس قصير النفس ، لا يكاد يتجاوز ما أنشأه للغزل قصدا البيتين والثلاثة غالبا ، مكتفيا بذلك التعبير عما ألم به من انفعال سريع "[84] .

4) الهجاء :

الهجاء من أقل الأعراض التي نظم فيها أبو فراس قبل الأسر وبعده وقد قصر هجاؤه في الروميات على الروم ، فقد هجا القائد الرومي الدمستق لوصفه العرب أنهم ليسو فرسانا ولا يعرفون الحرب ، حيث قال :"إنما أنتم كتاب ولا تعرفون الحرب ، فقال أبو فراس : نحن نطأ أرضك منذ ستين سنة بالسيوف أم بالأقلام "[85] ثم أنشد :[86]

أتزعم ياضخم اللغاديد أننا ونحن أسود الحرب لا نعرف الحربا
لقد جمعتنا الحرب من قبل هذه فكنا بها أسدا وكنت بها كلبا
بأقلامنا أحجرت أم بسيوفنا وأسد الشرى قدنا إليك أم الكتب

ثم أخذ يذكره بالقواد الروم الذين قضى عليهم سيف الدولة فقال:[87]

تفاخرنا بالطعن والضرب في الوغى لقد أوسعتك النفس يا بن استها كذبا
وجدت أباك العلج لما خبرته أقلكم خيرا وأكثركم عجبا

أما هجاؤه العام فقد كان قليلا ومنه قوله :[89]

إلى الله أشكو أننا بمنازل تحكم في آسادهن كلاب

فمن خلال ذلك يتضح لنا قلة شعره الهجائي ، ويعود ذلك لنبل الشاعر وترفعه عن السباب ، كما أن هجاءه كان دفاعا عن الدين والوطن ، وقد مزجه بالفخر .

الخاتمة

من خلال بحثي هذا الذي حاولت أن ألخص فيه مرحلة من حياة الشاعر أبي فراس تمثلت في أسره في بلاد الروم والشعر الذي نظمه وسمي لذلك بالروميات ، فقد عاش أبو فراس حياة مليئة بالمواقف والأحداث والتقلبات مما أثرى نتاجه الشعري بشكل واضح ، أي أن شعره كان منطلقا لدراسة شخصيته وميوله في الحياة بكل جلاء ، ومن ذلك رغبته الدائمة في أن يكون في المقدمة ، وطموحه الدائم نحو المعالي و السلطة، وهو أمر لا يخفى في شعره ، فمن ناحيته كمبدع أرى أنه وظف شعره بأن عبر به عن مشاعره ، وكشف من خلاله تجربته الشعورية لنفسه ولمتلقي فنه ، فلقد أوصل الرسالة التي أرادها الشاعر للمتلقي وقد أوحت صورها بما يحمله الشاعر من عاطفة و وجدان ومشاعر ، فأقنعت المتلقي بأن أشركته تجربة الشاعر، وحالته الوجدانية التي حملتها الصورة الفنية .

وأخيرا إن حياة هذا الشاعر الذي لم يعش طويلا ، وشعره جدير بأن تشحذ الهمم لتناول جميع جوانبه بالدراسة العميقة المفيدة ، فأقل ما يمكن أن يقال : إن حق أبي فراس علينا أن يدرس شعره دراسة وافية ويصنف في مصاف الشعراء العرب المبدعين والحمد لله رب العالمين

الهوامش

1. الجامع في تاريخ الأدب العربي / حنا الفاخوري - ص 820 .
2. يتيمة الدهر / الثعالبي 1 ص 27 .
3. ن م / ص 27 .
4. كتاب أبوفراس / رودلف دوفوراك ،طبع ليدل 1895 ص 342 .
5. محاولة القرامطة دك أركان الإمارة الحمدانية والاستيلاء على البلد .

6. خرشنة : حصن على الفرات قرب ملطية .

7. عصر الدول والإمارات / شوقي ضيف، ص 224

8. الجامع حنا الفاخوري ص 822

9. أخبار الدول / القرماني ص226

10. وفيات الأعيان / ابن خالكان 2 /61

11. الديوان 47/2

12. اليتيمة1 / الثعالبي ص 47 ومابعدها

13. أعلام الكلام ورسائل الإنتقاد / 52

14. الديوان 2 : 208

15. الديوان 3 :409

16. الديوان 2 :213

17. الديوان 2 : 79 - 80

18. الديوان 3 : 410

19. الديوان 2 : 235

20. فنون الشعر : 264

21. الديوان 2 :

22. الديوان 2 :36

23. شاعرية أبي فراس / نعمان الكنعاني - المطبعة ؟ : 21

24. شاعرية أبي فراس : 18

25. حياته وشعره : 295

26. الديوان 2 : 4

27. الديوان 3 : 330 - 331

28. الديوان 2 : 22

29. الديوان 3 : 409 – 410

30. فنون الشعر: 384

31. الديوان 2 : 24

32. الديوان 2 : 29

33. الديوان 2 : 25

34. اليتيمة 1 /99

35. الديوان 3 : 332

36. الديوان 2 : 80

37. نسب الثعالبي هذا القول إلى أبي فراس مباشرة ، اليتيمة : 97

38. نشوار المحاضرة :1 / 112والديوان : 2 / 25-26

39. الديوان : 2 / 26-27

40. الديوان 2 : 28

41. فنون الشعر: 373

42. حياته وشعره :303

43. شاعرية أبي فراس : 67

44. شاعر بني حمدان : 156

45. الديوان : 2 / 29

46. شعر الصراع مع الروم : 283

47. الديوان 3 : 371

48. الديوان 3 : 375

49. الديوان 2 : 206 - 207

50. الديوان 2 / 23

51. فنون الشعر : 373

52. تاج العروس – الزبيدي : 253

53. شاعر بني حمدان :118

54. حياته وشعره :325

55. الديوان 2 : 33

56. الديوان 2 :80

57. الديوان 2 :213-214

58. الديوان 2 :114

59. الديوان 2 : 24

60. الديوان 2: 33

61. الديوان 2 : 316

62. الديوان 2 : 30

63. الديوان 2 : 83

64. الديوان 2 : 83

65. الديوان 2 : 209

66. الديوان 2 : 209

67. الديوان 2 : 81

68. الديوان 2 : 213

69. أنظر حياته وشعره : 324

70. الشعر في رحاب سيف الدولة : 206

71. الديوان 2 : 217

72. الديوان 2 : 218

73. الديوان 2 : 275 - 276

74. الديوان 2 : 70

75. الديوان 2 : 71

76. أنظر الشعر في رحاب سيف الدولة : 201

77. الشعر في ظل سيف الدولة – د. درويش الجندي 1959 مكتبة الأنجلو المصرية : 250- 251

78. الديوان 2 : 33 - 34

79. الديوان 2 : 214 - 215

80. شاعر بني حمدان : 124

81. الديوان 3 : 407 - 408

82. الديوان 2 : 22

83. الديوان 2 : 209 – 210

84. شاعر بني حمدان : 79

85. اليتيمة 1 :106

86. الديوان 2: 36

87. الديوان 2 : 37-38

88. الديوان 2 : 23

المصادر و المراجع

1- الجامع في تاريخ الأدب العربي – حنا الفاخوري – دار الجيل للطبع والنشر – بيروت –لبنان – 1426 هـ / 2005م

2- أبو فراس الحمداني – حياته وشعره –عبد الجليل حسن عبد المهدي – مكتبة الأقصى – عمان – الأردن –الطابعون –جمعية أعمال المطابع التعاونية – 1401هـ /1981م

3- أعلام الكلام _ أو _ رسائل الانتقاد – ابن شرف القيرواني – مطبعة النهضة بمصر – 1344هـ/1926م

4- ديوان أبي فراس الحمداني – تحقيق د. سامي الدهان – المطبعة الكاثوليكية بيروت – 1945م

5- شاعر بني حمدان – د. أحمد أحمد بدوي - 1949م/ 1950م – مكتبة الأنجلو المصرية

6- شاعرية أبي فراس – د. نعمان ماهر الكنعاني – د . ط

7- شعر الصراع مع الروم – د. نصرت عبد الرحمان – مكتبة الأقصى – عمان – الأردن -1397هـ / 1977م

8- الشعر في رحاب سيف الدولة الحمداني – د . سعود عبد الجبار – مؤسسة الرسالة - بيروت – لبنان – 1981م

9- الشعر في ظل سيف الدولة – د. درويش الجندي 1959م – مكتبة الأنجلو المصرية

10- نشوان المحاضرة و أخبار المذاكرة – القاضي أبي علي التنوخي – تحقيق عبود الثالجي المحامي – 1391 هـ / 1971م – د .

11 - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس أحمد بن محمد بن خالكان – تحقيق حسين عباس – دار الثقافة بيروت – لبنان – 1397هـ / 1977م

يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر – أبو منصور عبد ا